

ابن باديس ودور إصلاح التعليم بالزيتونة في الحفاظ على الهوية خلال الفترة الاستعمارية.

Ibn Badis and the role of education reform in Zaytouna in preserving identity during the colonial period.

أ.د. محمد مرغيت مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا جامعة أحمد دراية - أدرار، (الجزائر)، Med.merghit18@univ-adrar.edu.dz	مرابطي رفيقة(*) مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا جامعة أحمد دراية - أدرار، (الجزائر)، rafika.81@univ-adrar.edu.dz
---	---

تاريخ الاستلام: 2022/08/ 30 تاريخ القبول: 2023/04/ 23 تاريخ النشر: 2023/06/ 10

تعتبر مسألة الهوية من بين القضايا التي كانت مطروحة وسط الشعوب المغاربية، بسبب إهدار الاستعمار مقوماتها ببعديها العربي والإسلامي وتكريسه للفراغ الثقافي والفكري، وكان ابن باديس يدرك من خلال تتبعه لقضايا التربية والتعليم في جميع الأقطار المغاربية بأن تغيير هذه الأوضاع يستلزم ضرورة إصلاح الوضع التعليمي في المنطقة المغاربية، والتي أصبحت برامج مؤسساتها التعليمية عقيمة، خاصة جامع الزيتونة، وتجاوز ابن باديس النقد إلى تقديم البديل، بإرسال مقترح برنامج إصلاحية متكامل للمؤسسة الزيتونية سنة 1931م، لتغيير المناهج والمواد العلمية، كي تتماشى مع تطور العصر، وتسد الفراغ المتعلق بثوابت الهوية المغاربية وتعزيز الانتماء الوطني، فما هي المقترحات التي قدمها ابن باديس في مشروعه لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة؟ وفيما تتمثل مرتكزات الهوية في برنامجه التعليمي؟ وما هو دور هذه الإصلاحات في الحفاظ على الهوية المغاربية؟

الملخص

الكلمات الدالة: ابن باديس؛ جامع الزيتونة؛ التعليم؛ الإصلاح؛ الهوية.

Abstract: The issue of identity is among the issues that were raised among the peoples of the Maghreb, due to the colonialism's blurring of its components in its Arab and Islamic dimensions and its dedication to a cultural and intellectual void. Ben Badis was aware, through his follow-up to education issues in all Maghreb countries, that changing these conditions necessitates the need to reform the educational situation in the region. Magharebia, And whose educational institutions' programs became ineffective, especially the Zaytouna Mosque, and Ibn Badis went beyond criticism to offer an alternative, by sending a proposal for an

* المؤلف المرسل.

integrated reform program to the Zaytouna Institution in 1931, To change the curricula and scientific materials, in order to keep pace with the development of the times, and fill the void related to the constants of Maghreb identity and the strengthening of national belonging, What are the proposals made by Ibn Badis in his project to reform education at Al-Zaytouna Mosque? What are the foundations of identity in his educational program? What is the role of these reforms in preserving the Maghreb identity?

Keywords: Ibn Badis; Al-Zaytouna Mosque; education; repair; identity.

1. مقدمة:

لم يقتصر اهتمام ابن باديس على إصلاح التعليم في الجزائر فقط، بل امتدت جهوده الإصلاحية إلى المنطقة المغاربية، نظرا لإدراكه المبكر أهمية التعليم في بلورة مرتكزات الإصلاح في باقي المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات المغاربية، وما له من دور في الحفاظ على هويتها، خلال مرحلة حاسمة تميزت بتزايد البطش الاستعماري على شعوب المنطقة لتشتيت وحدتها، ومحاولته طمس هويتها بمحاربة الدين الاسلامي واللغة العربية، لذا وانطلاقا من المتطلبات الظرفية التي فرضتها تلك المرحلة، والتي تستدعي تغيير هذه الأوضاع، قام ابن باديس بإرسال مقترح مشروع إصلاحي إلى لجنة الإصلاح لجامع الزيتونة التي أسست سنة 1931م بتونس، من أجل وضع أسس وبدائل مواكبة تطورات العصر، مع الحفاظ على الثوابت الهوياتية للأمة المغاربية، انطلاقا من هذا المعهد الذي له أهمية علمية في إمداد البلدان المغاربية بعدد كبير من العلماء، لهم تأثير كبير في عملية الإصلاح، فما هي المقترحات التي قدمها ابن باديس في مشروعه لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة؟ وفيما تتمثل مرتكزات الهوية في برنامجه التعليمي؟ وما هو دور هذه الإصلاحات في الحفاظ على الهوية المغاربية؟

إن منطلقات إصلاح التعليم في جامع الزيتونة عند ابن باديس لم تخرج عن الإطار العام للإصلاح الذي كان قد بدأه في الجزائر منذ عام 1913م عندما تحصل على تصريح بتوسيع تدريسه في مسجد سيدي الأخضر، وفي عام 1917م أدخل التعليم الثانوي إلى المسجد العمومي "فتح الله". وعلى قدر اهتمامه بتوسيع التدريس والوعظ بقسنطينة، على قدر ما كان

مهمتها بمحتوى برامج التعليم، مركزًا على إحياء مقومات مجتمعه لمقاومة تأثيرات الفرنسية، ومنتقداً لطرق التعليم في المغرب العربي، عاملاً على تصحيحها على كل المستويات، لذلك فإن الأهداف البحثية المتوخاة من هذه الدراسة، تكمن في الكشف عن ملامح الفكر الإصلاحي عند هذا العلامة على المستوى المغاربي، وإبراز إلى أي مدى كانت مقترحات الإصلاح هذه قادرة على تغيير الوضع التعليمي في جامع الزيتونة، لكي يعود إلى استكمال آداء رسالته الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية، كونها المؤسسة التعليمية التي يلتحق بها عدد كبير من الطلبة المغاربة، وبذلك فتأثيرها مهم جدا في ترسيخ مرتكزات البعد الهوياتي لهذه الأقطار خلال فترة استعماريه طويلة من القرن العشرين، تميزت بخطرهما على الأرض والإنسان معا.

2. تاريخ جامع الزيتونة ودوره المغاربي:

1.2 . تاريخ جامع الزيتونة:

كان جامع الزيتونة من أشهر المؤسسات العلمية، وقبلة الكثير من طلبة العلم منذ القدم، بما فيهم الطلبة الجزائريين، خاصة المتخرجين من مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. نظراً لمستواه العالي ومواصفاته الإسلامية التقليدية، فمحتوى التعليم فيه كان لا يختلف كثيرا عما كان في العصور الوسطى الذهبية للحضارة الإسلامية⁽¹⁾، وبعد هذا الجامع حسب ابن خلدون من أقدم الجوامع التي بنيت في الشمال الإفريقي⁽²⁾، وهو المؤسسة الثقافية الأولى في البلاد التونسية والمغرب العربي، بينما يأتي في المرتبة الثانية عربيا بعد جامع الأزهر بمصر.

ينسب بناؤه إلى حسان بن النعمان سنة (79هـ-698 م) حسب ما ذهب إليه الكثير من المؤرخين⁽³⁾، ولقد نال نصيبا وافراً من الاهتمام لدى الخلفاء المتعاقبين على حكم تونس، خصوصا فترة الأغالبة، الذين أضافوا عدة تحسينات وترميمات ميّزت الجامع عن غيره من الجوامع الإسلامية، ويرجع هذا الاهتمام الشديد إلى المكانة العلمية المرموقة التي احتلها، كونه منارة للعلم والتعليم على غرار دوره كمكان لأداء الصلاة والعبادة، فقد كان الأئمة والمشايخ في

البداية ينظمون به حلقات للدروس والوعظ والإرشاد، إلا أن نظام التعليم هذا ما فتى أن تطور وأخذ شكلاً خاصاً له قوانينه ومناهجه وإجازاته، ولا يختلف كثيراً عن الجامعة⁽⁴⁾.

وقد ارتبط الجامع ثقافياً ارتباطاً وثيقاً بتاريخ تونس، كونه مؤسسة إسلامية وصلت سمعتها شرقاً وغرباً⁽⁵⁾، ليصبح مع مرور الوقت منارةً علميةً في شمال إفريقيا⁽⁶⁾، وهو الأمر الذي سمح لتونس بأن تتبوأ مكانةً رائدةً نتيجة قيام نخبة فكرية صاحبت انتشار المعاهد العلمية بها، كمعهد "بيت الحكمة" بالقيروان الذي اهتم بتدريس الرياضيات والطب والصيدلة والترجمة⁽⁷⁾، والمساجد كمسجد الفقيه أبي ميسرة أحمد بن بزاز الزاهد، ومسجد أبي عبيد الرحمن الحلبلي، ومسجد السبت (الدمنة)، والمسجد الكبير بالقيروان⁽⁸⁾.

وفي العهد الحديث وبعد إصلاح التعليم، وتغيير المناهج وطرق التدريس تحول جامع الزيتونة إلى مؤسسة دينية وثقافية ذات مكانة رفيعة، يُقبل عليها الطلاب من الشرق والغرب للاستزادة من مختلف العلوم، وقد تخرج منه عدد كبير من العلماء الذين ذاع صيتهم في عدة اختصاصات كالإفتاء، الفقه، التفسير، السير، الأصول، والآداب... إلخ، ليرتقي دوره انطلاقاً من هذه المكانة من مجرد مؤسسة للصلاة والعبادة والتعليم إلى التصدي للحماية الفرنسية في كثير من المواقف التي تُعارض الدين وتُخالف ما تدعوا إليه الشريعة الإسلامية⁽⁹⁾.

2.2 دور جامع الزيتونة على المستوى المغاربي:

ساهم جامع الزيتونة باعتباره منارة اشعاع علمي وفكري، في مسيرة الإبداع والتقدم، وتعدى دوره العلمي فأصبح قاعدةً للتحرر والتحرير من الاستعمار⁽¹⁰⁾، نتيجة تكوينه لعدد كبير من المثقفين من مختلف فئات المجتمع، وبهذا خرج عن دوره التقليدي القائم على تعليم العلوم الدينية، وانتقل إلى معترك الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، وهو ما برز من خلال موقف علماءه من مختلف القضايا الوطنية⁽¹¹⁾، وقد اعترف مدير التعليم العام "لويس ماشويل" ممثل الحكومة التونسية، أن تونس كانت الوجهة الأكثر استقطاباً للطلبة المسلمين الراغبين في مواصلة تعليمهم، في كل من جامع الزيتونة والمسجد الأعظم، خاصة الطلبة المغاربة

من الجزائر وليبيا⁽¹²⁾، ووصل عدد الطلبة الزيتونيين مع أواخر القرن 19م إلى ما يقارب 930 طالبًا حسب إحصائيات عام 1897م⁽¹³⁾.

وبالإضافة إلى مكانته كمرکز للإشعاع العلمي في المنطقة المغاربية، فقد كان أيضًا مركزًا للتواصل الفكري والحضاري ما بين مختلف المراكز العلمية في باقي أقطار شمال إفريقيا، خاصةً في فترة تولي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مهمة الإشراف على المسجد الأعظم، ومن بين هذه المؤسسات التي كان لها ارتباط وثيق بالجامع نجد في مقدمتها مدارس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، وجامع القرويين في فاس، وارتكز مجال التواصل على تبادل الخبرات العلمية والثقافية والفكرية، ومناقشة المسائل المتعلقة بالدرجات العلمية والشهادات الممنوحة من الجامع⁽¹⁴⁾، وتعدى إلى مجال إصلاح التعليم والنظم التربوية.

إن هذا النشاط العلمي للنخب المثقفة في جامع الزيتونة كان له تأثيره الواضح على الحياة العلمية والثقافية المغاربية، من خلال تصدر هذا الصرح العلمي على رأس المؤسسات العلمية في شمال إفريقيا، وتحمله لمسؤوليات عظيمة في فترة عصيبة من فترات الاحتلال، وواجه تحديات كبرى على عدة مستويات، زادت من توسع آفاق الآمال المعلقة على عاتقه، من أجل النهوض بالمجتمعات المغاربية من خلال غرس الوعي الفكري، وترسيخ القيم الوطنية، لمواجهة السياسة الاستعمارية، والتحرر من قيود الاحتلال وسيطرته على هذه الأوطان.

3. تبلور فكرة إصلاح التعليم في جامع الزيتونة عند ابن باديس:

1.3 شخصية ابن باديس العلمية وأثر علماء الزيتونة عليه:

شعر ابن باديس سنة 1908م بميل شديد للهجرة، لكن والده لم يسمح له إلا بالهجرة إلى جامع الزيتونة بتونس لطلب العلم، فانظم في سلك الطلبة وانكب على الدراسة ولم يفكر بأمر آخر غير العلم، وقد تتلمذ على يد مشاهير شيوخ الزيتونة لكن رغم كثرتهم إلا أن تأثيره كان كبيرًا بالشيخين: محمد الطاهر بن عاشور حامل لواء إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، ومحمد النخلي القيرواني أحد أكبر رجال الإصلاح الديني، اللذين كان لهم فضل كبير في حياة ابن باديس، ولطالما ذكرهما في خطاباته.

ونتيجة هذا التأثير استغل ابن باديس مدة دراسته بجامعة الزيتونة في طلب العلم، فهو سلاحه الذي سيحرر به العقول من الفكر الاستعماري بعد عودته إلى وطنه، وبعد تخرجه سنة 1911م تولى التدريس بجامعة الزيتونة، ثم عاد في عام 1912م إلى الجزائر، عازماً على مباشرة التعليم الذي يراه أساس النهوض بالشعوب قائلاً: "اختاروا أنتم ما اخترت، وحرابوا الأمة الفاشية في شعبكم، فهي التي أخرته عن ركب الحياة، وأبعدته عن مفاهيم الإسلام الصحيح، كما فعلت بغيره من شعوب الشرق، ومن هنا نبدأ فليبدأ غيرنا من حيث يشاء" (15)

وابن باديس من العلماء الذين يشعرون بعبء المسؤولية الملقاة على عاتقهم اتجاه أمتهم بصفتهم علماء فعلى الرغم من العراقيل الاستعمارية التي واجهته الا انه استأنف التعليم سنة 1914م، بعزيمة أكبر يحفره في ذلك رغبته الشديدة في النهوض بالأمة، وإخراجها من الوضع السيئ الذي خلفه الاستعمار الفرنسي بإفساده للتعليم، وأرجع عبد الحميد سبب ضعف الأمة وتخلفها وانحرافها، إلى تقصير العلماء في أداء واجبهم اتجاه أبناء الأمة، تربيةً وتوجيهًا وتوثيقًا (16). فقد أدرك طبيعة المعركة التي يخوضها مع فرنسا، وما يميزها من الشمول والاتساع وما تتطلبه من استنفار لكل القوى المتوفرة، وتوجيهها نحو معركة مصيرية. لهذا فالجهد الذي بذله لنشر الوعي ضد الاستعمار كان له أثره البالغ على مجريات الأحداث فيما بعد، ورغم قسوة الظروف التي كان يعيشها في الجزائر، إلا أنها لم تصرفه عن رؤية أبعاد الصراع ضد المسلمين (17)، خاصة على المستوى المغاربي، وما مارسه الاستعمار من اضطهاد للتعليم ومؤسساته التي كانت ترسخ ثوابت الهوية المغاربية، وفي مقدمتها الإسلام واللغة العربية. اللذين رمي الاستعمار بكل ثقله لمحاربتهم، فروح التضحية والجهاد التي تشبع بها ابن باديس جعلت حياته ملحمةً متصلةً من الاجتهادات لنشر الوعي، عن طريق التعليم الذي طبع شخصيته، لأنه يراه مرحلةً مهمةً من تاريخ الأمة، التي تحتاج إلى من يتعلم ليعلم الناس، وليتم بناء نهضة وصناعة تاريخ وحمل رسالة، يُقاوم بها الاستعمار (18).

و قد عبر ابن باديس عن هذه الفكرة قائلاً: "إننا لا نريد أن نُكون من تلامذتنا اليوم علماء بحث وفلسفة وآداب وخيال، ولكن نريد قبل كل شيء أن نُكون منهم أولاً بُناة نهضة،

ودُعاة إسلامٍ وجهادٍ، ووقوف بالمرصاد للاستعمار الذي أقام سياسته على أساس محاربة قومائنا الروحية والثقافية حتى يسهل عليه أن يبتلعنا، ويقضي على شخصيتنا... إننا لن نُمكّنه أبداً مما يريد"، كما أكد على وجوب إعداد الناشئة إعداداً علمياً وطنياً منذ الصغر، لإدراكه الشديد أن الكثير من طلبة العلم الذين تعلموا في صغرهم بعيداً عن المقومات الروحية والوطنية، صاروا في كبرهم أعداء دينهم ووطنهم⁽¹⁹⁾، وهو ما قامت به السياسة الاستعمارية من استمالة لهؤلاء المتعلمين خدمةً لمصالحها.

ولهذا تجلّى فكر ابن باديس في التخطيط للإصلاح وخدمة الإسلام والعروبة، ومحاربة الاستعمار، مدرّكاً بوضوح أبعاد مشروعه الإصلاحية، مستنداً على القوة التي تغذيها التوعية، والتعليم والإصلاح والتجديد، كونها العوامل الأساسية التي تصنع الوعي داخل المجتمعات، وقد قام التعليم عنده على تلقي دروس الدين والأخلاق وقواعد اللغة العربية والتاريخ الوطني، وإعادة الثقة لنفسية الفرد ودينه ولغته ووطنه وقومه وما يكتسبه من تربيةٍ وتوجيهٍ ديني ووطني⁽²⁰⁾.

والقانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الذي حطّهُ الإمام ابن باديس بنفسه سنة 1930م، ركز في أول بنوده على التربية الإسلامية لأبناء المسلمين، بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم. فعمل على تطوير الفكر الثوري بالعلم والمعرفة حتى لا تضيق تضحيات السابقين سُدى، لذلك مضى قُدماً في تقويم الأفكار الخاطئة، مهاجماً للآراء المستوردة، لما لها من خطر على الفكر الثوري وبناءه⁽²¹⁾.

2.3. توسع الفكر الاصلاحى لابن باديس وأهميته في الحفاظ على الهوية المغاربية:

سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي والمجتمع في القرن التاسع عشر ميلادي، سيطرةً مذهلةً، وأصبح الواحد منهم إذا ما سُئِل عن حاله، أجاب (ناكل القوت ونستني الموت)، وهو ما أدى إلى تعطيل الفكر وشل الطاقات الاجتماعية⁽²²⁾، أما القسم الثاني من الطرق ذات التصوف السني الصحيح، فقد كانت لها أدوار مهمة في الحفاظ على العقيدة والدين الإسلامي، من خلال نشر التعليم العربي في الزوايا والكتاتيب.

وقد استطاع ابن باديس أن يدرك جوانب الإصابة والخلل في المجتمع الجزائري الواقع تحت الاحتلال، ويحدد الأسباب التي ألحقت به هذه الإصابات، وبدأ التفكير بمعالجة جذور الأزمة، أو السبب العميق الذي يكمن وراءها، ولم يقتصر في ذلك على معالجة الآثار على الرغم من أهميتها، فلم يغيب عنه أن إصلاح هذه الأزمة مرهون بالمنهج الذي صلح به أولها، واختبر ذلك في نفسه وما تحقق له من نقلة ثقافية فتحت بصيرته بسبب صلته بالقرآن.

كما أدرك ابن باديس أيضاً أن إصلاح التعليم في الجزائر لا يكفي، إذا لم يصاحبه إصلاح للتعليم على المستوى المغاربي، وبالأخص في المؤسسات التعليمية الكبرى، التي تشرف على تخريج عدد كبير من الطلبة المغاربة، والذين سيعودون إلى أوطانهم لمباشرة مسؤولياتهم في الإصلاح، وركز ابن باديس على جامع الزيتونة لكونه أبرز مؤسسة تعليمية تستقطب غالبية الطلبة الجزائريين والمغاربة من جهة، ونظراً أيضاً لقربها من الجزائر على حدودها الشرقية.

ومن أجل هذا ركز ابن باديس على الاستفادة من جامع الزيتونة لتكوين أبناء الجزائر ممن تتوفر فيهم المؤهلات العلمية لدخول هذا الجامع، فساهم هؤلاء المثقفون بعد عودتهم إلى أرض الوطن في النهوض بالحياة الفكرية والدينية والثقافية، من خلال ما بنوه من مدارس انتشرت عبر ربوع القطر الجزائري، وأحيوا الهمم وزرعوا الأمل في نفوس الأمة لمقاومة الاستعمار⁽²³⁾، وهو نفس النهج الذي نادى بانتهاجه في باقي الأقطار المغاربية، لذلك أولى اهتماماً كبيراً لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة.

أصبح لابن باديس هذه الشهرة التي تجاوزت الآفاق، وحضي بالتقدير وسطع نجمه بين البلدان المغاربية⁽²⁴⁾، نظراً لما قام به من مجهودات في مجال الإصلاح، فهو الذي ظل يبحث في تاريخ المغرب، إلى أن وصل إلى نقطة اللاعودة في وحدة الفكر والثقافة والهوية المغاربية، وكان يعتبر نفسه جندياً من جنود الوحدة المغاربية والقومية العربية، والحضارة الإسلامية، وقد أقر في وقته بالوحدة اللغوية والدينية والأخلاقية والتاريخية والمصير المشترك للبلدان المغاربية، التي كانت تعاني من محاولات الدمج ضمن المجتمع الفرنسي⁽²⁵⁾، ولعل هذا من بين الأسباب التي جعلته يُولي اهتماماً كبيراً لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة نظراً لتأثيره الكبير على أغلب الطلبة

المغاربة المتخرجين منه، ودورهم في مواجهة سياسة الادمج، من خلال الحفاظ على مقومات الهوية المغاربية التي تشترك فيها جميع أقطار شمال إفريقيا.

4. أبعاد الهوية المغاربية في برنامج بن باديس لإصلاح التدريس في جامع الزيتونة: 1.4. برنامج بن باديس المقترح لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة:

كان بن باديس يتتبع القضايا الخاصة بمسألة التربية والتعليم في جميع الأقطار المغاربية، ويدلي برأيه فيها، وينتقد برامج التعليم العقيمة في المؤسسات التعليمية، خاصة الجامعين العريقين الزيتونة والقرويين، وتجاوز النقد إلى تقديم البديل على من كان يثور عليه، فكان يرى أن إصلاح التعليم في تونس هو إصلاح للوضع في الجزائر والمغرب وليبيا، لذا قام سنة 1931م بوضع برنامج متكامل للمؤسسة الزيتونية، لتغيير المناهج والمواد العلمية، كي تتماشى مع تطور العصر، على اعتبار أن جامعة الزيتونة مؤسسة مغاربية يقصدها الطلبة من كل بلدان المغرب العربي، لتلقي العلوم الدينية والقانونية والأدبية والاجتماعية⁽²⁶⁾. ولسد الفراغ المتعلق بثوابت الهوية الشخصية المغاربية والاعتزاز بالانتماء الوطني. وقدم ابن باديس سلسلة من اقتراحاته المنهجية لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة، على اعتبار أنه كان مطلعًا بالوضع العلمي والبيداغوجي فيه، اطلاعًا مباشرًا بناءً على خلفية درايته بطرق التدريس فيه وعلى المواد المقررة لمختلف طبقات الطلبة، لأنه دَرَسَ وَدَرَّسَ فِيهِ، وله اتصال دائمٌ بأساتذته وطلابه، نظرًا لإرساله بعثات علمية للجامع، ويمكن إيجاز المقترحات المنهجية والبيداغوجية فيما يلي:

أولاً: إن ما يميز جامع الزيتونة أنه كلية دينية ومن أجل تحقيق أهدافها، اقترح ابن باديس تقسيم التعليم إلى قسمين، الأول القسم العام ومدته ثماني سنوات، والثاني خاص بالتخصص، ويشمل كل فرع على: القضاء، الفتوى، الخطابة، الوعظ والإرشاد، وتخرّيج المعلمين، وحدد مدة الفرع الأول بأربع سنوات، وستان لباقي الفروع، كما اقترح أيضا إجراء امتحان سنوي لجميع الطلبة، ينتهي بالحصول على الشهادة العالمية⁽²⁷⁾.

ثانياً: تشتمل منهاج التعليم على مواد: اللغة، النحو، الصرف، البيان والأدب العربي وتاريخه، والعقائد الدينية، والفقه، والتفسير، والحديث، والتاريخ، والحساب والجغرافيا، ومبادئ مبسطة

عن الطبيعة والفلك والهندسة، وعلى مسؤولي الجامع النظر في إمكانات الشيوخ المعلمين، ومدى قدرتهم على تدريس هذه العلوم، وإلا البحث عن المتكلمين منها خارج تونس (28).

ثالثاً: أما عن كيفية تدريس هذه العلوم، فقد وضع ابن باديس تصوراً شاملاً عن المنهج المتبع والملائم في التدريس، كإقتراحه تدريس اللغة العربية والنحو والصرف مع تطبيق قواعدهما على الكلام الفصيح لتحصيل الملكة، والخروج عن النمطية في القراءة دون تطبيق، كما كان معتمدان سابقاً، وهو ما اعتبره مضيعة للوقت في ظل قلة التحصيل وتعطل ملكات القراءة (29).

رابعاً: اعتماد القرآن كمرجع أساسي ومباشر للاستشهاد به في القضايا المتعلقة بالعقائد، لكفايته عن أي مصدر آخر، بعيداً عما يتعارض مع أدلة المتكلمين الصعبة بما تتضمنه من مصطلحات جافة، كما يقتصر تدريس مادة الفقه على تقرير المسائل دون التشعب فيها، ثم التطرق إلى التذكير بأدلتها، فيما يجب الاكتفاء بالتركيز على المسائل المجردة في تدريس أصول الفقه، أما التفسير فاقترح تدريس تفسير "الجلالين"، والغاية من ذلك هو إطلاع المتعلم على التفسير بفهم المفردات وأصول المعاني إجمالاً (30).

خامساً: أما فيما يتعلق بالمنهج التعليمية فقسم التخصص في القضاء والفتوى، ونصح بضرورة التوسع في المذاهب ثم الفقه العام، ونوه إلى ضرورة تدريس كتاب "بداية المجتهد" لابن رشد، ورافقه بدراسة آيات وأحاديث الأحكام وعلم التوثيق، والتوسع في علم الفرائض والحساب، مع مطالعة مدارك المذاهب، وهذا كله من أجل أن يتخرج الطلبة من الزيتونة وهم متمكنين ومتفهمين في الشريعة الإسلامية والفقه، يُصَوَّبُونَ أنظارتهم على الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة والشاملة، لا من زوايا المذاهب الضيقة والمنحصرة التفكير (31).

سادساً: كما لم يهمل ابن باديس في برنامجه الإصلاحي جانب الخطابة والوعظ، حيث اقترح ضرورة اشتغال المنهج الجديد على دراسة المواعظ والآداب وأحاديثهما، ومطالعة مختلف أنواع الخطب مع التوسع في السيرة النبوية وتاريخ نشر الدعوة الإسلامية، بالإضافة إلى التمرن على إلقاء الخطب الارتجالية. لما لها من أهمية في التكوين الميداني للطلبة وصقل إمكاناتهم، وتعزيز ثقتهم بأنفسهم للإقناع والحجاج. كما أشاد بضرورة تطبيق خطبهم على مقتضيات الظرف

وتوحي الوقائع النازلة، وتجنب الخطب المحفوظة التي تعكس مظاهر الجمود والقصور الفكري، وهو ما ينم عن هدف ابن باديس في تخريج جامع الزيتونة لعلماء جديدين مجتهدين يُنتَفَعُ بهم، ودُعاة ومُصلحين مَصْبُوغِينَ بألوان الثقافة العصرية ومصقولين بأساليبها المتطورة (32).

سابعاً: قسم فروع التعليم والتوسع فيها حسب العلوم التي يرغب الطلبة في تعلمها، لكن ركز على ضرورة تمرين المتعلمين على التعليم الفعلي، وتدريبهم على مُمارستها والتمكن منها قبل الشروع في تطبيقها مباشرةً، ودراساتهم للكتب المختصة في فن التعليم (33).

2.4. البعد الهوياتي في المقترحات الإصلاحية لابن باديس:

إن خروج جامع الزيتونة عن دوره التقليدي المتمثل في تعليم العلوم الدينية، وانتقاله إلى معترك الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، كان لا بد منه بعد تطور السياسة الاستعمارية الفرنسية المنتهجة في تونس والبلدان المغاربية ككل ومسها بالمقومات الهوياتية لشعوبها، ما استدعى من علماء الزيتونة اتخاذ موقفهم من مختلف القضايا الوطنية وفي مقدمها موضوع الهوية وما يتعلق به من تعليم عربي، فرنسة، تجنيس، تنصير، قضاء إسلامي، وإدماج... إلخ لكن هذا الأمر يراه عبد الحميد غير كافٍ إذا لم يصحبه اصلاح للمناهج التعليمية، لما لها من دور كبير في تخريج طلبة أكفاء مواكبين لتطور العصر، واعين بمسؤولياتهم تجاه شعوبهم المستعمرة .

وقد خصي موضوع تميز هوية المغرب العربي باهتمام كبير نتيجة اختلاف وجهات النظر حول تصورات الهوية الشخصية المغاربية، بين المتشبعين بالثقافة الفرنسية الذين اعتبروا أن الشخصية المغاربية متميزة عن المشرق، لذلك دعوا إلى ضرورة الحفاظ على مقوماتها خاصة الأمازيغية، فيما يؤكد الاتجاه الثاني المتشبع بالثقافة العربية الاسلامية على الانتماء العربي الاسلامي للبلدان المغاربية (34)، إضافة إلى أن فكرة العروبة لم تكتسي مضمونا سياسيا قوميا مستقلا عن الإسلام، فهي حالة كامنة وغير جلية في المنطقة المغاربية، لأن الأقطار المغاربية تدين بالولاء للدول القطرية، لهذا فالهوية المغاربية تتميز بالتطابق مع المشرق في بعدي العروبة والإسلام- وبأفضلية كبيرة وواضحة لهذا الأخير- بالإضافة إلى البعد الوطني الذي تأكد على مدى المراحل التاريخية (35).

لهذا فالعرقية التي يذكيها المستعمر في كل شبر عربي ليمزق بها العروبة والإسلام، والطائفية التي ينشرها ليغذي بصراعها وجوده وتسلفه، هي ذاتها التي ينطلق منها ابن باديس في حجته على المستعمر وفلسفته، ومنها ذاتها يصنع ابن باديس العروبة بصفتها الأصلية التي تنزعه عن العرقية وتتعالى على الطائفية⁽³⁶⁾، وهو ما جعله يرد على هذه الطائفية بوضع برنامج تعليمي متكامل لجامع الزيتونة، يساهم به في الحفاظ على الهوية المغاربية، ويكرس الفكر الوحدوي لشعوبها، من منطلق الحفاظ على اللغة العربية والدين الإسلامي الصحيح. وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من التيارات المغاربية التي أكد بعض قادتها على مشروع الاستقلال المغاربي التام في بعده الوحدوي، لمواجهة الاستعمار المشترك، والوصول إلى حلول شمولية، لهذا فإن النضال المغاربي ارتبط ارتباطا كلياً بفكرة الوحدة، مؤكداً على امتدادها التاريخي وهويتها المشتركة تكريسا لمبدأ التضامن، وتجسيدياً لآمال وطموحات شعوبها⁽³⁷⁾.

ومن هنا نجد أن الحركة الباديسية لم تكن حركة إصلاحية ضيقة المفهوم وإنما كانت أعمق من ذلك وأبعد، وإن لم توفق في جانبها السياسي والاجتماعي، ولكنها حسب مصطفى الأشرف حملت مشروع حضاري إسلامي ضخم، كان همه: "استحداث التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وفق التصور الاسلامي..."⁽³⁸⁾، وهو ما سينعكس على تطور المقاومة ضد المستعمر الفرنسي بعد أن توسعت فكرة الإصلاح في البلدان المغاربية، وظهرت حتمية توحيد الجهود ضد المحتل ليأخذ الصراع بعداً مغاربياً.

ويتبين أن ابن باديس كان من أبرز الوحدويين المغاربيين فكراً وثقافةً وهويةً، وهو ما دلت عليه جميع أعماله العلمية والسياسية والأدبية والتاريخية، وكانت الهوية المغاربية حسب رأيه تكمن في الوحدة التاريخية والدينية واللغوية والثقافية والفكرية والجغرافية، لكون الهوية السياسية غائبة في تلك الفترة، بسبب خضوع كل الأقطار المغاربية للاستعمار، لكن الوحدة الأدبية والقومية حسب وجهة نظر ابن باديس فهي متحققة بين الشعوب المغاربية لا محالة: لغةً، جنساً، تاريخاً، آلاماً وآمالاً⁽³⁹⁾، وهو ما جعله يركز على فكرة إصلاح التعليم في جامع الزيتونة ليواكب التطورات الحاصلة على مستوى السياسة الاستعمارية في المنطقة المغاربية.

وما يؤكد ذلك أيضا هو الخطاب الذي ألقاه ابن باديس أثناء زيارته لتونس سنة 1937م، أمام أساتذة وطلاب الزيتونة، والذي أكد فيه على مدى إدراكه لدور تونس ومكانتها العلمية في الفكر الإصلاحي قائلا: "حقا إن لتونس هوى روحيا، بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط الفكر... إن الروابط عديدة بين تونس والجزائر... كالروابط العلمية والروابط السياسية التي ذاقت بها هذه الأقطار حلوة الاستقلال تحت ظل الإسلام والتاريخ يشهد بذلك"⁽⁴⁰⁾.

إن منطلقات ابن باديس في الفكر والثقافة والهوية، كانت منطلقات مغاربية في الأصل والنشأة والتطور والنضج، فهو كان من أهم وأبرز رجال عصره في هذا المنظور، وله جهوده في إعادة العلاقات الثقافية والروحية والتاريخية بين أقطار المغرب العربي الثلاثة، بفتح باب الهجرة العلمية من جديد إلى جامع الزيتونة والقرويين⁽⁴¹⁾، والتذكير في كتاباته بوحدة الانتماء التي تبدأ بتوحيد مناهج التعليم.

ومن خلال ما تم عرضه من اقتراحات ابن باديس لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة، نستنتج مدى حرصه على ترقية التعليم في المؤسسات التربوية بالبلدان المغاربية، لأنه أدرك مدى الأهمية التي يكتسبها هذا الهرم العلمي في استقطاب طلبة العلم من كافة الأقطار المغاربية، خصوصا الجزائر، انطلاقا من تجربته العلمية بالجامع، ليكون المتخرج منه قادرا على التوجيه، ما يمنحه مكانة تؤهله لتحمل مسؤولية التغيير نحو الأفضل، ويكون قدوةً لغيره باعتباره مواطنا صالحا ونموذجا يحتذى به في التفكير والعمل الجاد⁽⁴²⁾. فابن باديس جعل التعليم من أولويات اهتمامه حيث قال: "إني أحارب الاستعمار لأنني أعلم وأهذب، فمتى انتشر التعليم والتهديب في أرض أجدبت على الاستعمار، وشعر في النهاية بسوء المصير"⁽⁴³⁾.

إن تركيز ابن باديس في برنامجه الإصلاحي على ضرورة النظر في إمكانيات الشيوخ المعلمين لتدريس مناهج التعليم في الزيتونة دليل على حرصه الشديد على التكوين الصحيح للطلبة المتخرجين، خاصة فيما يتعلق بالمواد التي تمس بأبعاد الهوية المغاربية، لذلك اهتم باللغة العربية التي تحتاج إلى تطبيق قواعدها على الكلام الفصيح لمعالجة مشكلة الملكة والارتجال عند

الطلبة لما له من تأثير عليهم في مخاطبة الناس واستمالتهم في حلقات العلم والإرشاد الديني (أئمة، فقهاء..)، فالإصلاح يتطلب الاهتمام بالعربية لما تعانیه في مواجهة سياسة الفرنسة واعتماد الدارجة في التعاملات الإدارية، ما انعكس سلبا على الفرد المغاربي بإضاعة لغته الرسمية.

كما ركز ابن باديس على الدين الإسلامي الذي أولاه أهمية كبيرة نظرا للخاصية الدينية للجامع، فجاء القضاء الإسلامي والفتوى في مقدمة اهتماماته وفقا للحجم الساعي المرصد له، لكون الجامع بمد المجتمعات الإسلامية والمغاربية خاصة، بعدد كبير من الإطارات الذين يتقلدون وظائف عمومية في الدولة والقضاء (موثقون، قضاة، محامون، عدول)، لذا ركز ابن باديس على الخروج من النظرة التقليدية في تكوين هؤلاء استجابة لتطورات العصر من جهة، ومواجهة سياسة القضاء الاستعمارية التي تحاول القضاء على الشخصية الإسلامية للمجتمعات المغاربية من جهة أخرى عن طريق التجنيس.

لم يهمل ابن باديس الوازع العقائدي والروحي وما له من دور في الحفاظ على الانتماء الإسلامي للمجتمعات المغاربية، لذلك ركز على الاستشهاد بالقرآن واعتماده كمرجع أساسي، بعيدا عما جاء به المتكلمون السابقون لما في ذلك من اختلافات ومصطلحات جافة تصعب من ترسيخ العقيدة الإسلامية وفهمها بشكل صحيح بعيدا عن التأويلات، وهي نفسها الاختلافات التي ميزت المرحلة التي انتشرت فيها الطرق الصوفية التي استمالها الاستعمار.

ويرى السيد جوزيف ديبارمي أن أهداف الجمعية تتمثل في " فهم لغة القرآن والعودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة واعتبار المغرب العربي كقلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغرب وتنقية وتبسيط الدين الإسلامي"⁽⁴⁴⁾. لذلك ركز رحمه الله على فئة الأطفال والشباب. لأنهم مناط التربية والتعليم، وأول مستحقيها من غيرهم، فلا بد أن تولى لهم أهمية التكوين والتوجيه، لما يستدعيه مصير الأمة والمجتمع والوطن، من تقدم وازدهار، أو تأخر واضمحلال⁽⁴⁵⁾، وكيف لا ونحن نتحدث عن فترة استعمارية، تكالبت فيها فرنسا على كامل الأقطار المغاربية من أجل فرنستها ودمجها وتنصيرها وسلخها من هويتها. وقال في هذا الصدد: "... كان أبناؤنا يومئذ لا

يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات يملاً أدمغتهم بالسفساف حتى إذا خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكرونها⁽⁴⁶⁾، لهذا كان لابد من مواجهة هذه السياسة التعليمية الفرنسية.

من هذا المنطلق كان لابد من وضع برنامج تعليمي يأخذ بعين الاعتبار متطلبات هذه المرحلة الحساسة، التي يحتاج فيها النشء إلى تثبيت مرتكزات شخصيته الوطنية والمغربية المستقلة تماما عن فرنسا في بعدها الإسلامي والعربي والأمازيغي، ولن يتأتى هذا إلا بإصلاح التعليم في جامع الزيتونة الذي كان أهم مؤسسة تعليمية تُخرج عدد كبير من هؤلاء الشباب المغاربة، الذين ستقع على عاتقهم مسؤوليات أكبر في إصلاح الوضع التعليمي والثقافي والاجتماعي عند عودتهم لأوطانهم وبعث صحوة فكرية، ونشر الوعي بمقاومة المحتل.

وتعد مقترحات إصلاح التعليم في جامع الزيتونة التي قدمها ابن باديس، عملية استكمال لجهوده الإصلاحية ومواقفه الوطنية للحفاظ على الهوية المغربية، كإصداره فتوى بتكفير كل مسلم جزائري أو تونسي أو مغربي يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية باختياره ويتجنس بالجنسية الفرنسية للتمتع بالحقوق المدنية، واعتبر هؤلاء مرتدين⁽⁴⁷⁾.

فيما يضيف ابن باديس أنه حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ، وجدنا هذا المغرب العربي يرتبط بروابط متينة روحية ومادية تتجلى بها وحدته للعيان...، ولسنا نريد هنا أن نتحدث عن التاريخ القديم، وإنما نريد أن نعرف صفحة من التاريخ الجاري⁽⁴⁸⁾، ومن هذا المنطلق نجد أن ابن باديس ركز في برنامجه على تدريس التاريخ والجغرافيا لأهميتهما في ترسيخ الانتماء الوطني لدى شعوب المنطقة.

وابن باديس كان يدرك إدراكاً راسحاً بالوحدة المغربية، التي لا يمكن تجزئتها ولا فصلها عن الكل العربي الإسلامي، وقد أشار في محاضراته سنة 1937م التي دُعي إليها طلبة جزائريون بتونس: "إن الجمعيتين اختارتا أن يكون الكلام عن الجزائر وأنا أحب أن يكون الحديث عن عموم المغرب العربي، لأنني أؤمن بأن هذا الشمال الإفريقي، لا ينهض إلا بتضامنه مع بعضه بعضا، لكن إذا تحدثت عن الجزائر، فإنما أتحدث عن جزء من كل، عن الأخ ما يسر إخوانه"

وعبد الحميد كان يؤمن إيمانا قويا بأن المغرب العربي هو وحدة قائمة بذاتها،⁽⁴⁹⁾ وقد ذكر في إحدى مقالاته قائلا: "إن الإتجاه الإسلامي والوحدة العربية بالمعنى الروحي، والمعنى الديني والمعنى الأخوي، هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم، بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام"⁽⁵⁰⁾.

3.4. موقف الاستعمار الفرنسي من الإصلاحات في جامع الزيتونة:

كان على نُحْب الإصلاح المغاربية التي ظهرت أغلبها في العصر الحديث مواجهة عدة تحديات نظرا للركود الفكري الذي وصلت اليه شعوب المنطقة بسبب السيطرة الاستعمارية⁽⁵¹⁾، وقد كان عبد الحميد بن باديس يدرك إدراكا كاملا أن السبيل الوحيد لإخراج أي أمة من حالة الانحطاط إلى نور العلم والمعرفة والتوحيد هو تفسير كتاب الله وفق ما تقتضيه تلك المرحلة، وهي الأرضية التي ستسمح بمعالجة القضايا الفكرية والشرعية والتربوية والوطنية والهوياتية التي تعاني منها الأمة الإسلامية عموما، نتيجة السياسات الاستعمارية المطبقة فيها، وقد تصادم فكره هذا مع سياسة الفكر الاستعماري الذي اتخذ موقفا قمعيا من الإصلاح، خاصة في مجال التعليم العربي والاسلامي في البلدان المغاربية.

لذلك فالبرنامج الاصلاحى لابن باديس الذي قدمه لجامع الزيتونة أخذ بعين الاعتبار البعد الوجداني للأقطار المغاربية. خاصة بعد تصاعد الأصوات المنادية بالقوموية نتيجة تزايد اضطهاد الإسلام والعروبة، ومحاولات تكريس الصليبية عسكريا كبديل عنهما، ما جعل جمعية العلماء المسلمين ترد بقوة على هذه السياسة باتخاذ الإسلام والعروبة شعارا لها⁽⁵²⁾.

وبما أن السياسة الاستعمارية الفرنسية عملت على الإبادة الروحية للشعوب المغاربية باستهداف مقوماتها الشخصية دينيا ولغويا، تمهيدا لفصلها عن إنتمائها الحضاري العربي والإسلامي، فقد أولت الجانب الثقافي اهتماما كبيرا بمحو ثقافة شعوبها، والقضاء على مؤسساتها التعليمية من مساجد وزوايا وكتاتيب ومدارس حرة⁽⁵³⁾، لإبعاد هذه المجتمعات عن تاريخها وتراثها الفكري العربي والإسلامي والأمازيغي والمغاربي. فهي كانت تدرك أهمية التعليم ومؤسساته في تحقيق أهدافها، لاستكمال مسار التغلغل الاستعماري عن طريق غزو العقول

(54) ، وتوجيه المجتمعات أخلاقيا وتربويا وثقافيا وسياسيا. ومن هذا المنطلق نجد أن رد الاستعمار الفرنسي على فكرة إصلاح التعليم في جامع الزيتونة اتسمت بانتهاجها سياسة قمعية ارتكزت على التضييق على حركة الهجرة في اتجاه تونس، فقد أجبرت السلطات الاستعمارية الجزائريين على استظهار رخصة قانونية، وكان من الصعب الحصول عليها كما ذكر ذلك مُحمد علي دبور -عند تنقله الى جامع الزيتونة باعتباره أحد طلبتها- قائلا: " قد أغلق باب تونس على التلاميذ وجعل السفر إلى تونس برخصة صعبة، وكانت لا تعطي للتلاميذ وكان التلاميذ يقطعون الحدود سيرا على الأقدام من جهة الجبال الصعبة التي لا يجرسها الفرنسيون لصعوبة الطرق فيها، وبعدها والتوائها وكنت ممن يئس في سنة 1942م من الحصول على رخصة الذهاب الى تونس، فذهبت بدون رخصة وسلكت تلك الطرق وتعرضت لمخاطر كثيرة..." (55).

وفي الوقت الذي كان فيه المفكر الجزائري ابن باديس يساهم في إصلاح برامج التعليم في الزيتونة، كان يحتج أيضا باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على تدخل الإقامة العامة الفرنسية في شؤون الطلبة الزيتونيين، وقد أرَّختْ جريدة البصائر للعديد من بريقيات الاحتجاج التي بعث بها ابن باديس الى وزير الخارجية بباريس، والمقيم العام بتونس، طالبًا منهما التدخل لإنهاء الأزمة التي وقعت بين الطلبة الزيتونيين، بسبب الإجراءات الإدارية الفرنسية، والتي أفلقت كما يقول ابن باديس: " جميع المسلمين عمومًا ومسلمي شمال إفريقيا خصوصا..." (56).

وهو ما يعني مساهمة فرنسا بشكل كبير في عرقلة أي إصلاح يتم في جامع الزيتونة، ومحاولتها وضع يدها على جميع المؤسسات العلمية خصوصا هذا الجامع، وهو ما تم بعد تأسيس إدارة العلوم والمعارف برئاسة لويس ماشويل، الذي أفرغ الزيتونة من تدريس العلوم الكونية، وأنشأ بجواره معهدا لتخريج معلمي القرآن واللغة العربية، وجعل المدرسة الصادقية معهدا لتحضير التلاميذ للالتحاق بالتكوين في دار المعلمين باللغة الفرنسية (57)، وعلى الرغم مما بذل من جهود من قبل الحماية الفرنسية لاحتواء هذا الجامع منذ 1881م، وعرقلة إصلاح

التعليم فيه، إلا أنها لم تستطع تغيير الكثير من طبيعته، ولم تأثر في استقلالته المالية ولا العلمية⁽⁵⁸⁾.

5. خاتمة: من خلال ما تقدم في هذا البحث نستخلص ما يلي:

- اكتسى موضوع الإصلاح أهمية بالغة لدى ابن باديس، فطرحه لهذا الموضوع، ينم عن مدى الخبرة التي يتمتع بها في مجال التعليم، وثراء الأفكار التي طرحها وتنوعها، ودقة بصيرته فيما يخص النظرة الاستشراافية التي كان يبتغي الوصول إليها، خاصة إذا علمنا أن قضية الهوية لازالت لحد اليوم محل اهتمام من قبل الدارسين في الحقل التربوي والتعليمي مغارياً.

- إن اهتمام ابن باديس ومن بعده رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بجامع الزيتونة راجع إلى الكم المعتر من طلبة العلم المغاربة المتخرجين منه، والذي استدعى ضرورة تفعيل دور هذا الصرح العلمي في مقاومة الاستعمار بالأقطار المغاربية، من خلال التكوين الصحيح لطلبة يحملون الفكر الإصلاحى ببعده التربوي، ومتشبثين بهويتهم المغاربية.

- من خلال المقترحات التي قدمها ابن باديس لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة يتضح مدى التدهور الكبير للتعليم في تلك المرحلة، وعدم تطوره ومواكبته للعصر، وحدوث مشاكل شنته على مهامه، نتيجة ما طبقه الاستعمار من سياسات تعليمية في الأقطار المغاربية، أثرت على دوره في الحفاظ على مقومات الهوية المغاربية، فالرسالة الدينية التي كان يقوم بها تتعدى أهدافها المجال التعليمى لتمس باقي المجالات الوطنية، لذا فالظروف كانت تفرض تغذية الشعور بالانتماء الوطنى لما له من دور في تحرير العقول والذات.

- إن الصعوبات العلمية والدينية التي كان يلاحظها ابن باديس ويصطدم بها أثناء الممارسات اليومية لطلبة العلم سواءً في التفسير أو الخطابة، أو القضاء، أو القيم الوطنية، هي من الأسباب التي دفعت به إلى المناداة بضرورة إصلاح التعليم لأنه المنطلق لباقي الإصلاحات المختلفة، واللبنة الأساسية للتغيير من أجل تكريس مقومات الهوية المغاربية.

- إن تركيز ابن باديس على الدين والعقيدة في إصلاح التعليم راجع لدور التكوين الدينى في خدمة النهضة الإصلاحية في الأقطار المغاربية، خاصة في ظل العدد الهائل من طلبة العلم

المغاربة المتخرجين من جامع الزيتونة، لذلك جعل ابن باديس التعليم من أهم أولوياته لما له من أهمية في الحفاظ على الهوية، وإصلاحه للشخصية المغاربية لتكون قادرة على محاربة المستعمر.

- إن برنامج الإصلاح الذي قدمه ابن باديس، كان شاملا بما ضمه من تنوع في المواد المقترحة والوسائل المعتمدة، لمواجهة الجمود الفكري الذي أصاب الأقطار المغاربية والحفاظ على هويتها، فقد ركز على مقومات الهوية المغاربية التي تشترك فيها جميع الأقطار بداية من اللغة العربية، والدين الاسلامي عقيدةً وفكرًا وروحًا وممارسةً، بالإضافة لتعزيز الانتماء التاريخي والوطني.

- إن ما جاء من إصلاحات للتعليم في المشروع الذي قدمه ابن باديس لجامع الزيتونة ما هو إلا استكمال لمشروع الإصلاح الذي كان قد بدأه في الجزائر، بالإضافة إلى أن المرتكزات التي أولاها اهتماما كبيرا في عملية إصلاح التعليم كان لها دور مهم في الحفاظ على الهوية المغاربية من خلال تكريس فكرة الانتماء العربي والجغرافي المقترن باللغة والدين لتجاوز فكرة التشتت العرقي التي انتهجها المستعمر، وتجنر اللغة العربية الأصيلة والصحيحة والنقية التي بقيت حية عند جميع شعوب الأقطار المغاربية.

- إن أبعاد الهوية المغاربية التي نادى بها ابن باديس في مشروعه الإصلاحية للتعليم في جامع الزيتونة كان لها تأثيرها الواضح فيما بعد مع تبلور وتطور الفكر الإصلاحية سواءً عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أو التيارات الإصلاحية في المنطقة المغاربية عامة، فأصبح الحديث عن خصوصية هوية الشمال الإفريقي متداولًا في جميع جوانبه لتكريس التمايز عن المستعمر.

- كان للمشروع الإصلاحية لابن باديس دور في تثبيت الهوية المغاربية من خلال تثقيف النشء تثقيفا عربيا موحدًا، على يد متخرجين من جامع الزيتونة، بعد عودتهم إلى بلدانهم، وتعتبر فكرة النضال المغاربي المشترك من خلال مغربة النضال والثورة من أهم نتائج الجهود الإصلاحية للفكر المغاربي.

6. هوامش: (*)¹

- (1)- أندري، ديرليك: عبد الحميد بن باديس (1307-1358هـ) (1889-1940م) مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تقديم وترجمة مازن بن صلاح مطبقاتي، عالم الأفكار، الجزائر، 2013، ص ص 153-152.
- (2)- عبد الرحمن، بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان، دار الفكر، بيروت، 2000، ص 404.
- (3)- مُجَدَّ العريبي، بن عاشور: جامع الزيتونة المعلم و رجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1999، ص 10.
- (4)- ثريا، بن حمد: جامع الزيتونة، مجلة الخبر الإسلامي، عدد 21، 1 ديسمبر 2012، ص 04.
- (5)- حمد، بن خوجة: صفحات من تاريخ تونس، ترجمة حمادي الساحلي و الجيلالي بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 283.
- (6)- عبد العزيز، سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط ، 1999، ص 352.
- (7)- ثامر، الحبيب: هذه تونس، مكتبة المغرب العربي، تونس، د.ت، ص 13.
- (8)- خالد، كبير علال: الحياة العلمية بافريقية في عصر الدولة الأغلبية (184هـ-296هـ/800م-909م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2008-2009، ص 223.
- (9)- مُجَدَّ الأخضر، الحسين: تونس و جامع الزيتونة، ترجمة علي الرضا ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971، ص 26.
- (10)- ثريا، بن حمد: المرجع السابق ، ص 04.
- (11)- مُجَدَّ العريبي، بن عاشور: المرجع السابق، ص 137.
- (12)- François, Bourmond: Tunisie et tunisiens, Imprimerie J Lefort , Paris, 1893, p 294.
- (13)- D.G.E.P : Conférences sur les administration tunisiennes, imprimerie Francaise de sousse ,Tunis, 1899, p 461.
- (14)- مُجَدَّ، بوطيبي: التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن العشرين (دراسة في المنهج والبرنامج)، المجلة المغاربية للمخطوطات، مجلد 13، عدد 5، جوان 2017، ص ص 196-197.
- (15)- مُجَدَّ الصالح، الصديق: المصلح المجدد الإمام ابن باديس لهذا حاولوا إغتياله، دار هومة، الجزائر، 2014، ص ص 25-26.

- (16)-نفسه ، ص ص 28-29.
- (17)-بسام، العسلي: كفاح الشعب الجزائري"قادة الجزائر التاريخيون"، ج3، دار العزة والكرامة للكتاب، الجزائر، 2009، ص ص 630-643.
- (18)-نفسه ، ص 643.
- (19)-مُجَدِّ الصالح، الصديق: المرجع السابق ، ص 31.
- (20)-مُجَدِّ الصالح، الصديق: المرجع السابق، ص ص 37-47.
- (21)-بسام، العسلي: المرجع السابق، ص 648.
- (22)-عمار، طالي: ابن باديس حياته وآثاره، الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج عبد القادر بوداود، الجزائر، ط3، 1997، ص 18.
- (23)-عبد الرزاق، الأحمر، قادة، عطلاوي: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس في أدبيات الرحلة العلمية الجزائرية (1913-1954م)"، مجلة آفاق فكرية، عدد 07، الجزائر، 2017، ص 239.
- (24)-مُجَدِّ الصالح، الصديق: المصلح المجدد الإمام ابن باديس لهذا حاولوا إغتياله، دار هومة، الجزائر، 2014، ص ص 21-22.
- (25)-عبد الكريم، بوصفصاف: تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ج1، ص 343.
- (26)-عبد الكريم، بوصفصاف: المرجع السابق، ص 347.
- (27)-عبد الحميد، ابن باديس: إصلاح التعليم بجامع الزيتونة عمره الله، الشهاب، مجلد 07، ج10، الجزائر، أكتوبر 1931، ص 605.
- (28)-نفسه، ص 605.
- (29)-نفسه، ص 605.
- (30)-نفسه، ص 605.
- (31)-نفسه، ص 605.
- (32)-عبد الكريم، بوصفصاف: المرجع السابق، ص 317-318.
- (33)-عبد الحميد، ابن باديس: التفسير، مطبعة المؤسسة الوطنية للشؤون المطبعية، الرغبة (الجزائر)، 1993، ص 295.

- (34)-صلاح، العقاد: السياسة والمجتمع في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، 1971، ص 204.
- (35)-مُحَمَّد صالح، الهرماسي: مقارنة في إشكالية الهوية في المغرب العربي المعاصر، دار الفكر، دمشق، 2001، ص 37-41.
- (36)-بسام، العسلي: المرجع السابق، ص 648.
- (37)-عبد الله، مقلاتي: العلاقات الجزائرية المغاربية والإفريقية إبان الثورة الجزائرية، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ج1، ص ص 21-23.
- (38)-بيحي، جلال: السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ص ص 278-279.
- (39)-عبد الكريم، بوصفصاف: المرجع السابق، ص ص 331-341.
- (40)-عبد الحميد، ابن باديس: البصائر، عدد71، السنة الثانية، الجزائر، 18 جوان 1937، ص 04.
- (41)-المرجع السابق، ص 350.
- (42)-نفسه، ص 318.
- (43)-مُحَمَّد عبد الرحمن، بسكر: فتح ذي القوة المتين ببيان بعض جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المحافظة على اللغة العربية والوطن والدين، منشورات ثالة، الجزائر، 2015، ص 84.
- (44)-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996، ص 86.
- (45)-حسين، رئيس: الهوية الثقافية والروح الوطنية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2018، ص 203.
- (46)-مُحَمَّد عبد الرحمن، بسكر: المرجع السابق، ص 51.
- (47)-نفسه، ص 80.
- (48)-عبد الحميد، ابن باديس: وحدة الشمال الإفريقي، الشهاب، عدد 05، مجلد 13، الجزائر، 1937.
- (49)-خيرية، عبد الصاحب وادي: الفكر القومي العربي في المغرب العربي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982، ص 160.
- (50)-صالح، حربي: في رحاب المغرب العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت، ص 12.
- (51)-مُحَمَّد، الميلي: المؤتمر الإسلامي الجزائري، مؤسسة الضحى، الجزائر، 2013، ص ص 164-165.

- (52)-خير الدين، شترة: إسهامات جمعية العلماء المسلمين في الحياة السياسية و الفكرية 1900-1939، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 292.
- (53)-غانم، بoudن: النشاط الثقافي والسياسي للطلبة الجزائريين بتونس خلال النصف الأول من القرن العشرين، مجلة دفاتر البحوث العلمية، مجلد09، عدد 02، الجزائر، 2021، ص 222.
- (54)-Abdelkader, Djeghloul: de Hamdane Khodja a Kateb Yacine (les intellectuels algériens modernes 1880-1930), Dar El Gharb, Oran, 2004, p34.
- (55)-مُجَّد علي، دبور: نخضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1971، ج2، ص 20.
- (56)-عبد الكريم، بوصفصاف: المرجع السابق، ص 348.
- (57)-أبو بكر الصديق، حميدي: قضايا المغرب العربي في اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية (1920-1954)، دار الهدى، عين مليلة، 2021، ص 170.
- (58)- أندرى، ديرليك: المرجع السابق، ص ص 152-153.

6. قائمة المراجع:

- Abdelkader, Djeghloul: de Hamdane Khodja a Kateb Yacine (les intellectuels algériens modernes 1880-1930), Dar El Gharb, Oran, .2004
- Francois, Bourmond: Tunisie et tunisiens, Imprimerie J Lefort , Paris.
- D.G.E.P : Conférences sur les administration tunisiennes, imprimerie Francaise de sousse ,Tunis, 1899.
- أبو بكر الصديق، حميدي: قضايا المغرب العربي في اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية (1920-1954)، دار الهدى، عين مليلة، 2021
- أندرى، ديرليك: عبد الحميد بن باديس (1307-1358هـ) (1889-1940م) مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تقديم وترجمة مازن بن صلاح مطبقاتي، عالم الأفكار، الجزائر، 2013
- بسام، العسلي: كفاح الشعب الجزائري "قادة الجزائر التاريخيون"، ج3، دار العزة والكرامة للكتاب، الجزائر، 2009.
- ثامر، الحبيب: هذه تونس، مكتبة المغرب العربي، تونس، د.ت.
- حسين، رئيس: الهوية الثقافية والروح الوطنية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2018.

- حمد، بن خوجة: صفحات من تاريخ تونس، ترجمة حمادي الساحلي و الجليلي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- خير الدين، شترة: إسهامات جمعية العلماء المسلمين في الحياة السياسية و الفكرية 1900-1939، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- خيرية، عبد الصاحب وادي: الفكر القومي العربي في المغرب العربي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982.
- صالح، حربي: في رحاب المغرب العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت.
- صلاح، العقاد: السياسة والمجتمع في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، 1971.
- عبد الحميد، ابن باديس: التفسير، مطبعة المؤسسة الوطنية للشؤون المطبعية، الرغاية (الجزائر)، 1993.
- عبد الرحمن، بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان، دار الفكر، بيروت، 2000.
- عبد العزيز، سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999.
- عبد الكريم، بوصفصاف: تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- عبد الله، مقلاتي: العلاقات الجزائرية المغاربية والإفريقية إبان الثورة الجزائرية، ج1، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- عمار، طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج عبد القادر بوداود، الجزائر، ط3، 1997.
- مُجدّ صالح، الهرماسي: مقارنة في إشكالية الهوية في المغرب العربي المعاصر، دار الفكر، دمشق، 2001.
- مُجدّ الأخضر، الحسين: تونس وجامع الزيتونة، ترجمة علي الرضا، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971.
- مُجدّ الصالح، الصديق: المصلح المجدد الإمام ابن باديس لهذا حاولوا إغتياله، دار هومة، الجزائر، 2014.
- مُجدّ العربي، بن عاشور: جامع الزيتونة المعلم و رجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1999.
- مُجدّ عبد الرحمن، بسكر: فتح ذي القوة المتين ببيان بعض جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المحافظة على اللغة العربية والوطن والدين، منشورات ثالة، الجزائر، 2015.
- مُجدّ علي، دبوز: نغمة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1971.
- مُجدّ، الميلي: المؤتمر الإسلامي الجزائري، مؤسسة الضحى، الجزائر، 2013.
- يحي، جلال: السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، دار المعرفة، الجزائر، 2009.

● المقالات:

- ثريا، بن حمد: جامع الزيتونة، مجلة الخبر الإسلامي، عدد 21، 1 ديسمبر 2012.
- عبد الحميد، ابن باديس: البصائر، عدد 71، السنة الثانية، 18 جوان 1937.
- عبد الحميد، ابن باديس: وحدة الشمال الإفريقي، الشهاب، مجلد 13، عدد 05، 1937.
- عبد الحميد، ابن باديس: إصلاح التعليم بجامع الزيتونة عمره الله، الشهاب، مجلد 07، ج 10، أكتوبر 1931.
- عبد الرزاق، الأحمر و قادة، عطلاوي: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس في أدبيات الرحلة العلمية الجزائرية (1913-1954م)، مجلة آفاق فكرية، عدد 07، 2017.
- غانم، بون: النشاط الثقافي والسياسي للطلبة الجزائريين بتونس خلال النصف الأول من القرن العشرين، مجلة دفاتر البحوث العلمية، مجلد 09، عدد 02، الجزائر، 2021.
- مُجد، بوطيبي: التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن العشرين (دراسة في المنهج والبرنامج)، المجلة المغاربية للمخطوطات، مجلد 13، عدد 5، جوان 2017.

● رسائل الدكتوراه:

- خالد، كبير علال: الحياة العلمية بافريقية في عصر الدولة الأغلبية (184هـ-296هـ/800م-909م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2008-2009.